الفصحى والعامية
بين قوميتها الثقافية ومحليتها

بقلم الدكتور عبد الله الطيب

اللغة العربية الفصحى لسان مشترك بين سائر العرب في مختلف اقاليمهم وعلى مختلف عصورهم . واللغة العامية شيء اقليمي. وربما تباعد ما بين اللهجات العامية في أقطار العربية المختلفة تباعدا يعسر معه التفاهم . ومع هذا ليس البون بين كل منها على حدته واللسان الفصيح بالبعيد الشاسع الذي يقال معه ان الاختلاف جوهري كالذي يكون بين اللغتين المستقلتين . ومن أجل هذه الصلة الواشجة بين كل عامية على حدتها وبين اللغة العربية الفصحى نجد من الممكن هذه الايام ان نتفاهم بلسان وسط بين العامية والفصحى شبه مشترك بين سائر اقطار العربية ولا سيما من طريق المذياع وفي لقاءات المؤتمرات وما أشبهها . على ان هذا اللسان الوسط شبه المشترك في حالة تغير مستمر ، وهو اقرب الى ان يكون صنفا من اللغة الفصحى المسرع بها في أداء الكلام المتحدث به من غير ما تأت الى تجويد الاعراب .

والحق ان اللغة العربية قد كانت في دهرها القديم الاول لهجات مختلفات منهن القصي جدا عما تواضع عليه اهل الفصاحة من بعد وجعلوه لسانهم الفصيح كقول الآخر :

يا بن الزبير طالما عصيكا

وكاصناف ما روي من الكسكسة والكشكشة مما أطرح اطراحا ولم يعد بفصيح . وفي اخبار القدماء ما يدل على ان اللحن كان قد يقع ويتعمد تحاشيه على نوع من تكلف واجتهاد . وفي كتاب « الامالي » ان سيدنا عمر رضى الله عنه عاب فتية على لحنهم لما رآهم يخطئون الرمي فسالهم فقالوا نحن متعلمين . وقد جاء في الاثر ما ينبيء عن ان اللحن كان يقع بين طبقات الفصحاء في الجاهلية ، ولا ريب ان اللغة العربية الفصحى التي نظم بها امرؤ القيس والجاهليون انما نشأت من بعد طول اختيار بين طبقات الفصحاء الذين كانت تجمعهم مواسم الحج والاسواق . وانا أسمي هذا بطور العربية البطولي اذ قد أقدمت فيه على اختراع أساليبها الجزلة من اصناف لهجاتها المتباينات .

وقد نزل القرآن باللسان الفصيح المختار وصارت اللغة العربية الفصحى لسان حضارة الانسانية الكبرى في ذلك الزمان واستوعبت علوم الامم . وأتيح للعرب حينئذ من طرق التعليم ما تفوقوا به على جيرانهم من الامم التي ما كان تفوقهم عليها بالسيف والعقيدة فحسب. ولقد نعلم ان سيدنا عثمان رضي الله عنه قد أمر باتلاف المصاحف بعد ان تمت كتابة المصحف الامام على الحرف الذي وقع عليه الاجماع. فاية أمة في ذلك العهد كانت تملك من وسائل نشر العلم ومنهجه مثل الذي انتشرت به قراءة المصحف حتى قد احتيج الى اتلاف ما أتلف منه في ذلك المدى القصير .

ان العرب لم يكونوا مقصوري طلب العلم على طبقة كنسية او كهنوتية او لاهوتية كالذي كانت تفعله الامم الاخرى . وقد كان علمهم المستمد من الرواية تدعمه طريقة من الكتابة تيسر انتقاله وتكفل له سلامة الحفظ باقصى ما يستطاع . وكانوا يكتبون على مواد هينة المتناول كالعسب والالواح والكتوف وكان حبرهم من الصمغ وسكن الاثافي ومحروق الثمام . وكانوا يحفظون ما يكتبون ويمحونه ليكتبوا مكانه سواه فيحفظونه . بهذه الطريقة درسوا القرآن وما أثروه من شوارد لغتهم وروائع بيانها . وقد اعطى هذا المنهج الاعرابي منهم الاشعث الاغبر ذا القلوص مدرسة متنقلة لم يكن دهاقين الفرس وبطارق الروم وأباطرتهم يقدرون على شيء مثلها . ولعل المسافر الان في اقاليم الصحراء الكبرى بافريقيا ان يرى صورة تشبه شيئا ما بعض ما كان عليه أوائل العرب في منظر علماء اصحاب القواقل المستظلين تحت الشجر المسندي الواحهم الى أقتاد رواحلهم يقرأون أو يكتبون . ولا بأس ههنا من الاستطراد للتنبيه على ان العرب حين غزوا فارس والروم لم يكونوا دونهما فكرا وحضارة كما يزعم بعض من قد يؤرخ لهم الآن من الاساتذة ، بل كانوا أرقى منهما . وقد كان العرب بدوا وحضرا ، فاهل الحضارة منهم كانوا على علم واسع بأحوال من كانوا حولهم فكانوا ربما سخروا من قلة معرفة البدو بنحو هذا من خبر الدنيا . فيخطىء من يستنتج من هذا ان العرب قد كانوا كلهم جهلة محدودي الآفاق . ثم ان تلاحم بدو العرب بحضرهم أعطاهم من الحيوية والمتانة ما كان مفقودا عند مجاوريهم وهذا مكنهم من التفوق الباهر عليهم في ميداني الفكر والقتال .

هذا واللهجات التي غلبتها الفصيحة المختارة لم تمت ولكن بقيت هي لسان الاقاليم يشهد بذلك مثلا نحو ما روي من خبر رجز جند الحصين بن نمير :

يا بن الزبير طالما عصيكا

لا بل يبدو انه قد كان من اللهجات العامية الموغلة في الاقليمية وما بمجراها من المحلية لهجات فصيحة شبه عامية ـ للذي يخالطها من عفوية الاداء وسرعته مثل ما رواه ابن جني من مقالة الاعرابية « أفي السوتنتنة » أي « أفي السواة أنتنه » . وما رواه سيبويه من نحو فعلي في فعل وردّن في ردن وأمثال استمريت في استمررت

وفعلتيه في فعلته .

وقد أحوج وجود اصناف العامية مع اللسان الفصيح الى مزيد من العناية باللسان الفصيح واتقان دراسات نحوه وصرفه وأقيسته . ثم ان القوم قد أحسوا بنوع من حدس الغريزة انه لا بد لبقاء الحيوية في اللسان الحضاري الفصيح من تزويده باستمرار بنفس فطري مستمد من روح بداوته الاولى . فالتمس ذلك طوال ايام بني أمية في الرجز القح كأراجيز العجاج ورؤبة التي كانت توشك ان تنبعث من أثناء ألفاظها ذرات رمال بيرين والد هنا . ثم ضعفت الاريحية الى الرجز بضعف ملكات أهل الحضر على ان طلب أصول اللغة الحية في البادية ظل معمولا به الى أواخر القرن الرابع .

ثم ان اللغة الفصيحة ادركها ما ادرك حضارتها من عوامل الضعف وآل أمر العلم كله الى أكناف الدين . وقل التداول بالاسلوب النحوي بين طبقات غير الفقهاء . وكان أكثر رجالات الدول من العجم وفشت الامية . وانتشر التعامل بالعامية في أقاليم العربية . ولكنهالم ترم قط ان تسمو الى أوج آفاق البيان التي عند الفصحى . بل جارتها وبارتها في حدود ضيقة . فكتب بعضهم بها مقامات وحكايات. ونظمت فيها أصناف اشعار . وكثيرا ما عمد العلماء انفسهم الى التاليف المنظوم بالعامية ليقربوا مادة الدين من الناس .

ولعله يصح ان نطلق على ما بعد سقوط بغداد الى أوائل عصرنا هذا الحديث اسم الطور الديني في تاريخاللغة العربية وطابعه اقليمية الآداب العامية وضعف التآليف بالفصيحة الا ما خطته بعض اقلام المتصوفة ـ والفقهاء .

هذا وقد بدأت النهضة الحديثة في آداب اللغة العربية بداية حسنة واعدة أمثال البارودي وأحمد شوقي ومعاصريهما في مصر وغيرها . الا ان هذه النهضة لم يتح لها البقاء لاسباب من أهمها مصادمتها غزوة الاستعمار ، فهذه عمدت الى الالتواء بمناهج التعليم في بلاد العربية الى الترغيب في لغات الفرنجة مكان العربية الفصيحة وقد قوومت اول الامر ثم كان لها من بعد انتصار مؤسف .

هذا وقد عمت بلاد العربية الثورة على الاستعمار المصاحبها نوع اعجاب بحضارته وتقدمه . ومع الانتصار الذي حققته هذه الثورة من حيث اوضاع التحرر السياسي ظل يحيط بها ثقل مضن منالخنوع الحضاري لا بد من التخلص منه على وجه قاطع وبلا أدنى تردد ان كنا نريد لانفسنا حرية حقا وانتصارا ولا أرى الا ان اللغة العربية الفصيحة هي مفتاح ذلك الانتصار لما تشتمل عليه من معاني الاصل المكتنة في روح جزالتها البدوية القديمة النافرة من كل قيد وخنوع ، ثم لما لها من المقدرة الخارقة على استيعاب العلوم والحضارات . وما قويت عليه في الماضي لن يعجزها في المستقبل القريب ان شاء الله .

وأحسب اننا الآن نجتاز مرحلة خطرة من مراحل النهضة . وينبغي ان نستبعد منذ الآن فكرة التعامل البياني فيما بيننا باللهجات العامية لانها اولا محلية اقليمية رضيت لانفسها منذ دهر قديم بالوضع الثاني بالنسبة الى الوضع الفصيح الشريف ، فلعلها ان ثارت على هذا الوضع ألا تكون ثورتها الا ضربا من ثورات الرقيق التي تحتدم قليلا ثم تبوح الى ارتكاس ابدي سقيم . ثم انها حين كتب بها وتطلعت الى أوج التعبير الادبي الرفيع خضعت خضوعا مزريا للزخرف وغلت في تقليد بلاغة الاساليب الفصيحة حتى في ما كان يشوبه الضعف والانحلال . ثم اضف الى هذا ان اللغات العامية متفاوتة متباينة مختلفة فأيها اصلح للتعميم وعلى أيها اساس ، ثم على تقدير الاتفاق بيننا على أيها نأخذ به ، ألن نجد في تعميمه من عناء حمله على الناس شيئا كثيرا مما يوجد في تعليم اللغات الغرائب والتعويد لغير اصحابها عليها ؟

هذا وعسى ألا يخلو الداعون الى استعمال اللهجات العامية من نوع قياس فاسد اذ كأنهم يشبهون العربية الفصيحة المشتركة بيننا الآن باللاتينية التي كانت مشتركة بين شعوب اوروبا واذ قد تخلصت شعوب أوروبا من اللاتينية فكذلك يحسن بنا نحن مقلديها ان نتخلص من الفصيحة . والحق ان لغات اوروبا شيء عن اللاتينية مختلف ، كاختلاف الفارسية والنبطية والتركية عن العربية . وقد كانت اللاتينية لسان العلم في المجر وفنلندا وكلتاهما لغتها تركية الاصل . وما بين الالمانية واللاتينية بعيد على ان اصولهما « اندوجرمانية » على حد تعبيرهما كما أن الذي بين النبطية والعربية يعتمد على ان أصلهما سامي .

الوجه الآخر تشبثه اللهجات العامية بلهجات اللغات العاميةالتي بأوروبا والامريكا المستعملة مع اللغات المثقفة ـ كالكوكني واصناف لهجات أمريكا ولهجات شمالي انجلترا بالنسبة الى لغة التاج الانجليزية وكأصناف لهجات العامية بفرنسة بالنسبة الى الاسلوب العالي ، على ان الفرنسية ، على تقدير التسليم ان الفرنسيين جميعا يتحدثون بلهجة واحدة ، لغة مكتوبة لا يجاء بها في اساليب الحديث وانما يحتفظ بها للتعبير الرفيع ليس غير .

هذا وعسى اللغة المثقفة الوسط الشبيهه بالفصحى الدائرة بيننا الآن ان تكون مما يشجعنا حقا على التماس ان نجعل الفصحى هي نفسها لغة المستقبل المشتركة بين سائر أقطار العربية على منهج حي متطور اصيل في كلا بابي البيان المكتوب والمتحدث به . ذلك بان اللغة المثقفة انما هي محاولات تقريب متعمد بين كل عامية على حدتها وبين اللغة العربية في مجال الجد ثم بين مثقفي الاقطار العربية فيما بينهم . ومتى زادت موسوعة المثقفين من ذخيرة اللغة القديمة ودربوا بأساليب نحوها وبلاغتها وحرصوا على التبادل الفكري ارتفع مستوى هذه اللغة الوسط حتى يجاوز مشابهة الفصحى الى محض الصيرورة اليها والذوبان فيها .

وللهجات العامية ههنا مهمة عسى ان يضطلعن بها على وجه بناء عظيم النفع . وذلك انهن في طابعهن البدوي الخالص يحتفظن بمشابه كثيرة من معادن البلاغة العربية الاولى وروحها الذي ندعوه الجزالة . ولعل الادباء والبلغاء المعاصرين في الامة العربية يحسنون صنعا لو قد حرصوا حقا على تتبع هذه الجزالة كل في لهجته العامية الصحيحة البداوة ـ وقل اقليم عربي يخلو من ذلك ـ ونقل معادن اصالتها الى التعبير ولا اعني بهذا نقل ألفاظ من اللهجات العامية بأعيانها ولا عبارات بأعيانها ولكن تقمص روح البدوي العالي الصحيح بصدق قلب وبلا ادعاء وبث انفاس اساليبه في الاساليب الفصاح . فان ذلك مما يعين ان شاء الله على تجديد حيوية اللغة العربية . ومتىانضاف اليه الجد في درس النحو والتعمق في متن اللغة نفسه مع حبها والايمان بها والعمد الصالح الى زيادة مادتها بالاخذ والاقتباس من اللغات المعاصرة اخذا شريفا حرا مرفوع الرأس لا يلابسه ادنى استخذاء محاكاة وخنوع تقليد نشأت في لغتنا باذن الله نهضة خلاقة تقود الى تطور بطولي جديد تنفتح معه آفاق طور حضاري جديد . وعسى ان ننبه في هذا المقام الى ما قد يرومه بعض ادبائنا المعاصرين من التماس الرواج بين طبقات عوام المدن بنوع مبسط من عبارات الجرائد وأوشكت دوافع الكسب التجاري التي تصاحبها احيانا دوافعالكسب السياسي وطلب الشهرة وجنون طلب الانتماء الى تيار العصر ان تودي بالبيان العربي الناصع الذي ينبغي ان تبني عليه ثقافة القومية العربية في المستقبل .

عبد الله الطيب
عميد كلية الآداب بجامعة الخرطوم